

## من الحزن والفرح إلى المعاناة والاستمتاع: بحث في نظرية الانفعالات في فلسفة سبينوزا

رشيد ابن السيد<sup>1</sup>

تقديم:

إذا كان سبينوزا يتحدث في كتاب الإتيقا عن المتعة Plaisir والألم Douleur، فإنه نادرا ما كان يذكر مفاهيم المعاناة Souffrance والتمتع Jouissance. ومع ذلك سيكون من السهل ألا نرى في هذه المصطلحات إلا انحرافات لمفاهيم الحزن والفرح، والتي تشكل بالإضافة إلى الرغبة أساس نظرية الانفعالات عند سبينوزا.

بالتأكيد لم يعارض سبينوزا فكرة أنه قد يكون هناك فرح بعد المعاناة، كما قد يكون هناك حزن في التمتع، ولذلك يبدو من الحكمة التساؤل عن معنى هذه المفاهيم في إطار فلسفة تقوم على مبدأ المحايثة وعدم التعالي<sup>2</sup>، وتجاوز أطروحة الثنائية التي يمكن أن يفهم منها أنه بالإمكان أن يترافق الفرح الأخلاقي بمعاناة جسدية، في حين أن عدم الارتياح العقلي والحزن ينتج عن فائض المتعة الجسدية.

وإذا كان لفلسفة سبينوزا بعد علاجي فإن مهمتها تكمن في شفائنا من المشاعر الحزينة، ولكن هذا لا يعني أن ذلك سيجعل من الإنسان كائنا غير مبال وغير حساس لا يعبأ بأية معاناة إنسانية. ما يهم هو الطريق الذي يسلكه الإنسان لتأكيد سلطته والتعبير عن قدراته كيفما كانت، فطريق الخلاص Salut واحد سواء بالجسد أو بالروح، فهناك علاقة ارتباط وثيقة بينهما، إنهما يعبران عن واقع واحد.

ألن يشكل كبح جماح بعض قوة شخص ما وسيلة لتجاوز معاناته؟ ألن يكون نبذ كل معاناة جرماً وجناية مساوية لإدانة الاستمتاع؟ إذا كانت "الرغبة ماهية الإنسان عينها، من حيث صورتها مجبرة، بمقتضى انفعال من انفعالاتها الذاتية، على فعل شيء ما"<sup>3</sup>. إثبات الإنسان لذاته يعني إنتاج أفعال، أن يوجد الإنسان يعني أنه ينتج أسباباً، أي أنه قادر على التأثير بقدر ما يتأثر. إذا كانت المعاناة ضرورية لخلق الذات، ألن يكون ضرورياً أن نتركها أحياناً تغزونا حتى نتمكن من اكتشاف طريقة جديدة لفهم الحياة؟ أليس بهذه الطريقة يتم إبداع الأعمال العظيمة، منبع الفرح الكبير، وازدهار الكمال الإنساني، والذي لا يكتسب راهنته إلا بالمرور بنقيضه، إنها توليفة تجعل من المتعة والمعاناة يمتزجان بشكل لا يفصل؟

### 1- سياق المتعة والألم في فلسفة سبينوزا:

في نص مشهور في القسم الخامس من كتاب الإتيقا<sup>4</sup> ينتقد سبينوزا وبشكل حاد المزددين للسعادة، والذين يدعون إلى منع كل شكل من أشكال المتعة بالاستناد إلى الإرادة الإلهية التي تجبر مخلوقاته على عدم التخلي عن كل فرح يمكن أن يتيح لهم إمكانية الخلق. وهذا ما يرفضه سبينوزا ويعتبره مجرد خرافة بئيسة، ويؤكد على أن هذا الاعتقاد ليس إلا اعتقاد حسود يفرح لمشقة وعجز الإنسان، ولا يعي كلامه عندما يتحدث باسم الإله. إن ارتباط المنفعة بالمعاناة يمثل إشكالية ترتبط بلعبة المرايا. أليس من العسير ربط كل محاولة لتجاوز كل أشكال المعاناة بإدانة الاستمتاع وجعل المتعة سبباً للذنوب والمآسي؟ أليس هذا علامة سوء فهم خطير للوضع البشري، مما يولد الكراهية للإنسان الراغب في وجود أفضل؟

ألا يكون سبينوزا قد حاول وبقوة إدانة الأوامر التي فرضت علينا الاستمتاع وإبعاد كل معاناة من وجودنا وذلك ليفرض علينا عالما طهرانيا حيث الرفاهية هي الأهم.

في كتاب الإتيقا، وكما أشرنا سابقا لا يستخدم سبينوزا مصطلح المعاناة بشكل مباشر وصریح، وكذلك وبشكل أقل مصطلح الاستمتاع. إنه يتحدث مرارا وتكرارا عن المتعة والألم، وإذا كان مصطلح المتعة يظهر أربع مرات في ترجمة Charles Appuhn، فإن مصطلح المعاناة غائب تماما. وهذا ليس علامة إنكار من جانب سبينوزا، فقراءة كتاب الإتيقا يعلمنا بما فيه كفاية بقدرة مؤلفه ووضوح رؤيته في موضوع الوضع البشري، ولكن، وبالأحرى فإن مصطلح معاناة يعني السلبية والعبودية في تجلياتها الكلية. وهذا ما لا يمكن أن يتعارض مع الاستمتاع بشكل متماثل<sup>5</sup>.

إذا كان الاستمتاع في كثير من الأحيان يعوض المعاناة، فإنه يوجد على الأقل استمتاع حيوي ينتج عن ممارسة العقل وتلقي الحقيقة. هذا المعنى الذي نجده ثلاث مرات في كتاب الإتيقا عندما يتحدث في الفصلين الثامن والتاسع من الجزء الثالث حيث يتحدث عن: "التمتع بالحياة المطابق للعقل"، وفي الفصل الخامس عشر: "التمتع بالخير الأسمى Souvrain Bien". وهو أمر لا يثير الدهشة في سياق فلسفة لا تفصل الأفكار عن الانفعالات. ومن ناحية أخرى، وعكس ما سبق ذكره فإن المعاناة لا يمكن أن تكون إلا سلبية، ولهذا السبب فإنها تختلف عن الألم الذي يمكن أن يرافق الجهد. المعاناة هي بالضرورة أن تعاني لتشعر بالحزن النابع من سبب خارجي يقلل من قوتك.

يمكننا أن نستنتج إذن أن الفكر السبينوزي يبعد المعاناة من الوجود الإنساني. وأنها لا تلعب أي دور إيجابي فيه. بيد أن هذا الاستنتاج يبدو متسرعاً، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن فكر سبينوزا يقوم على مبدأ التدرج حيث يتم المرور من المعاناة إلى الفعل، وأن

شفاء المعاناة يكون بتعويضها بالتمتع السلبي، وهنا نحس بالمشاكل التي واجهها سبينوزا في عمله كله وخصوصا وبشكل أساسي مشكلة الحرية داخل نظام حتمي. أي كيف نفكر في الحرية في إطار حتمية الإنسان والطبيعة. إن تجربة المعاناة تبدو ضرورية في رحلة الحكمة والسعادة، ليس كمقابل مادي للوصول إليها، ولكن كشرط يجعل في الإمكان عودة الروح إلى ذاتها والذي بواسطته تبدأ الطريقة التأملية التي تفتح الطريق نحو الخير الأسمى. كما يتبين ذلك بشكل واضح في بداية كتاب رسالة في إصلاح الفهم.

## 2- جدل المتعة والمعاناة في فلسفة سبينوزا:

إن فلسفة سبينوزا كذلك ورغم كونها فلسفة الرغبة، والفعل والفرح، ألا تشكل كذلك فكرا يتعارض مع كل أشكال المعاناة. فهي لا تقدم نفسها كمجرد تشجيع على الاستمتاع باعتبار ذلك مشروعا للقضاء على كل أشكال المعاناة. كما أنها لا يمكن أن نحصرها في مجرد مذهب للمتعة، فالفرح ليس هو الاستمتاع، والمعاناة تبدو ضرورية أحيانا في إتيقا سبينوزا. ورغم ذلك، فليس هناك مجال لجعل السبينوزية مذهبا للألم على شاكلة باسكال Pascal الذي يشكر الإله على الآلام التي تجرعهما. ويرفض سبينوزا الغائية رفضا باتا، فليس للشر سبب للوجود، وكذلك الخير. فالخير والشر ما هي إلا قيم نسبية. يتعلق الأمر هنا بتبيان كيف يمكن للمعاناة في بعض الشروط أن تثير التفكير وتتيح المرور من المعاناة إلى الفعل.

إذا كانت المعاناة غير مرغوب فيها بالنسبة لسبينوزا، فلأنه لا ينبغي تجنبها بأي ثمن وإذا لم يكن التمتع مدانا فلا يجب أيضا عدم التماسه بطريقة ممنهجة. من المؤكد أن الإله لا يعاني ولا يمكن أن يكون عرضة للمعاناة لأنه مطابق للطبيعة، لأنه هو الوجود ذاته. لذلك فلا وجود لشيء خارجه ويمكنه التأثير. لكن إذا كان الله لا يعاني، فإنه كذلك لا

يستمتع، فهو لا يعرف المتعة كما نتصورها نحن. وهذا سيكون من باب النزعة التشبيهية الأنتروبومورفية تأويل القدرة الإلهية بقياسها على القدرة الإنسانية. في المقابل، فإن الإنسان باعتباره جزء من الطبيعة، ولأنه كائن مرتبط بكائنات أخرى فإنه لا يستطيع أن يتفاعل مع بيئته والخضوع لتأثير العلاقات التي يربط مع الأفراد الآخرين من حوله.

وهكذا، فإذا كانت هذه العلاقات تناسبه فإنه سيحس ببعض الاستمتاع، أما إن كانت لا تناسبه فهذا ما سيجعله في حالة معاناة. وفي جميع الظروف فإنه سيعاني. فالمعاناة والاستمتاع تمثلان إذن وبوجه عام كطريقتين مختلفتين للمعاناة، إلى حد يمكن القول معه أنهما تكونان غالباً نتيجة أسباب خارجية. وعليه، فإن الفرح الحقيقي ليس استمتاعاً يدغدغ متعة الفرد نتيجة سبب خارجي. إنه تعبير عن زيادة قوة الإنسان، ومن ثم فإنه أكثر كثافة لأن الإنسان لا يتصرف إلا بحكم حتمية طبيعية. وبهذا المعنى فإن الفرح يتجاوز التعارض بين المعاناة والاستمتاع بشكل كلي، ولا علاقة له بأي شكل من أشكال السلبية، بالقدر الذي يجعل "الناس يولدون جاهلين تماماً بعلل الأشياء".<sup>6</sup> فإن وضعيتهم في البداية كانت مزرية تحت تأثير المعاناة، وإذا كانت وضعيتهم الإنسانية هي العبودية - هذا ما يشكل الجزء الخامس من كتاب الإتيقا - فإن ذلك لا يمنع بعض الناس من التحرر من تلك الوضعية. وهذا ما يعني ضمناً أنه ورغم حالة العبودية فإنه من الممكن تجاوز المعاناة نحو وضعية أكثر حيوية. وإذا كنا نكرر كلمة وضعية فذلك لتجاوز معنى أن الشفاء من المعاناة ليس ممكناً ولا مرغوباً فيه. بالفعل، فإن المعاناة هي قدرنا، مادام الناس يولدون عبيداً. لكن، ألا تشكل هذه العبودية سبباً لتجاوزها، إلى الحد الذي يمكن أن تؤدي إلى البحث عن الفرح.

حسب وجهة النظر هذه، يمكن تحليل المعاناة والاستمتاع بشكل جيد، كحالتين للسلبية التي يمكن أن تنقلب نشاطا. بيد أنه يتعين أن نحدد المسار الذي يسمح بالانتقال من المعاناة إلى الفعل والذي يميز الفرحة كما يعرفه سبينوزا في الإتيقا<sup>7</sup>.

وإذا كان بإمكان المعاناة والاستمتاع لعب دور الوسيط في الانتقال إلى حالة الفرحة والسعادة، فذلك لأن بمقدورهما أن يشكلا لحظة للقطع مع العبودية واعترا ب الإنسان داخل طبيعة يسيء معرفتها وفهمها، والتي يتلقى تأثيراتها دون أن يعي أسبابها. والاستمتاع هو كل ما يبعدنا عن الكآبة، وهذا الحزن عموما هو تعبير عن نقص كبير في قوتنا<sup>8</sup>. وهكذا، فإن باستطاعة المتعة أحيانا أن تعيد لنا القوة على استرجاع قدرتنا على التفكير والفعل. أما بالنسبة للمعاناة فإنها عموما تكون أصلا للتغيير والانقلاب على الوضعية. عندما يتصور الإنسان العالم ويراه في إطار علاقات تنافر، فإنه يبدأ في التساؤل عن أسباب هذه المعاناة وإيجاد طريق الحكمة. وهذا هو مسار مؤلف كتآب رسالة في إصلاح الفهم، الذي كان يعيش في حالة من المعاناة والإحباط لأنه كان يدرك أن كل ما كان يمتناه على غرار جميع الناس لم يجلب له السعادة التي كان يتوق إليها.

### 3- تجربة المعاناة الوجودية وتأسيس مفهومي المعاناة والاستمتاع:

تحتوي الصفحات الأولى من هذا الكتاب حديثا عن العلاقة بين تجربة المعاناة الوجودية، والتي يمكن أن تظهر عندما تتوفر الظروف المناسبة حركة للعقل للعودة إلى الذات والتي تتيح التغلب على المعاناة وتجاوزها إلى الفعل، والذي لا يمكن تصوره دون تجربة معاشة. لذلك فمن الغباوة بالنسبة لسبينوزا محاولة إدانة الاستمتاع، كما يفعل المتشبهون بدين مبني على الخرافات. وذلك من أجل استغلال الناس واستعبادهم، بدلا من الرغبة في القضاء على أي شكل من أشكال المعاناة خصوصا في عصرنا الحالي الذي يميل فيه

الناس إلى جعل المتعة واجبا. كما لو كانت المتعة حتمية لتحقيق تلك الغايات، والتي من غير المجدي تماما التساؤل عنها. لكن، يبدو وفي نفس خط الفكر السبينوزي أنه من غير المجدي تجربة الحالتين معا: المعاناة والاستمتاع، وذلك لتحقيق العيش المشترك وفهم الروابط التي تجمعنا مع الطبيعة وذلك لبلوغ الحكمة.

وإذا كان سبينوزا فيلسوفا يميل إلى الضبط وينهى عن كل أشكال الغلو، فهو كذلك فيلسوف التفرد يوصي كل فرد بإيجاد معايير الشخصية للحياة.

ولذلك، فمن اللائق أن يؤكد جدارته في اختيار حدوده الخاصة من أجل معرفة افضل لما يناسب طبيعتنا وبالتالي تحقيق كمالنا على نحو أفضل. وإذا كان كل من الفرح والحزن لا يشكلان حالات بل فترات عابرة، فإن الاستمتاع والمعاناة يمكن أن تصبحا لحظات حاسمة تسمح بذلك التحول، إما سلبا عند الانتقال من الفرح إلى الحزن، أو إيجابا عندما يتم تنفيذ العملية في الاتجاه المعاكس.

إن موضوع الانتقال هذا، لا يخص الفرح والحزن بشكل عام، بل ينطبق أيضا وفقا لوجهة نظر أخرى لحالات الاستمتاع والمعاناة. ليس هناك فرق طبيعي بين هذين الانفعالين، لكن هناك فقط فرق في الدرجة فقط. فنفس الانفعال يمكنه وحسب شدته أن يكون أصلا ومصدرا للواحدة أو الأخرى. لهذا فإن سبينوزا ينصحنا بالاستمتاع لكن دون بلوغ حد الغثيان، أي دون تجاوز العتبة التي تتحول فيها المتعة إلى معاناة. وبواسطة لعبة الملاءمة ونقيضها والتي لا يمكننا معرفتها إلا من خلال تجربة المرور إلى الحد الأقصى والذي من خلاله نتعلم ونفهم مسار وجودنا ويوجهنا بشكل أفضل في مجال البحث عن الخير الأسمى والحياة الكريمة.

وبعبارة أخرى، لا يعرف المتعة إلا من جرب المعاناة، أي من يعرف بالتجربة أين تكمن أسباب المعاناة، والتي يجب وقف تأثيراتها ومعرفة السبل التي يجب تجنبها لأنها تؤدي إلى بلوغ طرق مسدودة في مسار وجودنا. فهذه التجربة التي أثرناها بالإشارة إلى كتاب "رسالة في إصلاح الفهم" عندما يجربنا سبينوزا في بداية كتابه غير المكتمل عن لحظة الأزمة التي يعيشها، حيث شكك في كل المعتقدات وكل الأحكام المسبقة والتي أدت إلى الفشل في بحثه عن حياة إنسانية حقا، وعلى وجه التحديد، فإن السعي وراء الثروة والمناصب والمكاسب الحسية والمادية، يشكل سببا لعدم الرضا والارتياح، والمعاناة وبالتالي الحزن. ولهذا فالفيلسوف مجبر على التفكير فيما يمكن أن يؤدي به إلى "الفرح الدائم والأزلي"<sup>9</sup>. وبتعبير آخر، فإن تجربة المعاناة والإحباط ذاتها والتي يجعل من الممكن لهذه الصحوّة العقلية التي تدرس نفسها وتسعى أن تفكر في الطبيعة الحقيقية لرغيبته وتحديد هدفه الحقيقي. وبخلاف أفلاطون وكل التقليد الفلسفي بعده، فإن سبينوزا لا يجعل من الرغبة نقصا، ولكنها قوة، فالرغبة هي تظهر قوة الوجود والفعل الإنساني. أن تصور الرغبة كنقص هو تعبير عن الأحكام المسبقة، الخلط بين السبب والنتيجة. فالحاجة ليست ماهية للرغبة، إنها تأثير لعدم الرضا والذي يكون في غالب الأحيان نتيجة لجهل طبيعته الحقيقية، لأن الفرد الذي يرغب ليست لديه معرفة بالهدف الذي يسعى إلى تحقيقه لتأكيد سلطته. والرغبة هي أولا وقبل كل شيء كما أكد Pierre Macherey هي رغبة تائهة<sup>10</sup>.

وبفعل قوة الفشل، فإنه أحيانا، وأحيانا فقط نهتدي إلى العثور على مسار التفكير الذي سيؤدي إلى وعي ذاتي كبير ونحو معرفة أدق بالأشياء التي تناسبه. ومن ثم فإن الأمر لا يتعلق بمسألة تبرير المعاناة أو تقدير الثمن لبلوغ الفرح. فالمعاناة لا تتضمن غاية في ذاتها، وكذلك الفرح. وهذا ما وضعه سبينوزا بما يكفي في تذييل الجزء الأول من كتاب



الإتيقا، فلا يوجد في الطبيعة إلا عللا فاعلة Causes efficientes . ومؤيدو الفكر الغائي يخلطون بين العلل والغايات. وفي المقابل، وفي بعض الظروف فالمعاناة قد تكون مثل الاستمتاع بالإضافة إلى علل أخرى، الوسيلة التي توقظ العقل وتحثه إلى البحث عن الحقيقة التي تؤدي به إلى بلوغ الحكمة.

#### 4-ضوابط المتعة في فلسفة سبينوزا:

وإذا كان سبينوزا علاوة على ذلك يقدم المتعة كالشرط الذي يأخذ العقل بواسطته وضعاً ملائماً لبلوغ الحكمة، فإنه يؤكد بعد ذلك، وكما أشرنا سابقاً "فلا يمكن أن يكون وإلى حد ما دون الوصول إلى حد الغثيان، لأنه لن يكون أبداً ممتعا" مؤكداً أن التمييز بين المتعة والمعاناة هو مسألة درجة أكثر منها طبيعة.

غير أنه يشكك في بداية كتابه "رسالة في إصلاح الفهم" في البحث عن متعة الحواس، فهذا فقط عندما تكون هذه الأخيرة من أجل ذاتها كغاية وليس كوسيلة، وبالمثل فإنه لا يجب البحث عن المعاناة لذاتها، والذي يكون "خرافة حزينة وشريرة" بالفعل. وهي ليست بالضرورة بدون تأثير إيجابي عندما تلتقي وتقترب بعلل أخرى تنتج آثاراً منقذة.

ليست المعاناة والاستمتاع إلا أحوالاً سلبية لا يمكن من خلالها جلب أي شيء ولا تجعل الإنسان وحدها نشيطاً، إنها تجعلنا نزرع تحت أسر العبودية، وهي عائق أمام التفكير مادامت ترهق العقل، في الوقت الذي يجعله الاستمتاع كسولاً وفي حالة نحول الأمر الذي يمنع. ما يمنع أي نقد أو تساؤل أو تفكير. وبالعكس، فإن تناوب تلك الأحوال ينتج عنه عدم استمرار الاستمتاع أو تؤدي إلى الاشمئزاز، الشيء الذي ينتج عنه تجاوزهما لجعل العقل أكثر نشاطاً ودفعه نحو طريق الفرح، ليس من خلال جدلية التجاوز السليبي،

والذي ليس له حسب سبينوزا وجود فعلي، ولكن عن طريق التجاوز الذي سيكون ذا طبيعة متسامية من خلال إعادة استثمار طاقة الكوناتوس، أي المجهود المبذول لحفظ الوجود والذي يأخذ عند الإنسان شكل رغبة من خلال فعل يجمع عمل العقل والجسم، ويبين قدراتهما معا بكل انسجام.

#### 5- المعاناة والاستمتاع ومضمراتهما الإبداعية:

بكل تأكيد وكما يشير إلى ذلك Laurent Bove عندما تسيطر علينا الكآبة، فإنه من المستحيل الإفلات منها، ونكون عبيدا خاضعين لها بشكل تام. ما ينتج عنه معاناة كبيرة. لكن، يكفي أن يقع حادث يرجع لنا أقل إحساس بالاستمتاع بالوجود ما يجعلنا نخرج من ذلك النفق<sup>11</sup>. لذلك يمكن أن تحتوي المعاناة والاستمتاع على قوة إبداعية لا تظهر إلا عندما تلتقي مع نقيضها.

إنه التقاء المتعة بالألم هو القادر على إنتاج حركة الخلق، وهكذا فإن المتعة الناتجة عن اليد التي تداعب مريضاً يمكن أن تعيد لهذا الأخير قوة لمكافحة معاناته وإثبات ذاته. ولوو بإنتاج عدد قليل من الكلمات التي تخرج عن نطاق الشكوى. وبالمثل فإن الإفراط في المتعة يؤدي إلى بلوغ الاستمتاع حد المعاناة بل قد يتجاوزه. ويسمح حصول الوعي بعدم اكتمال وجودهم الأول هو البحث عن المتعة من أجل ذاتها. إذا كانت أكبر المعاناة قد ولدت أعمال عظيمة، فهذا دليل على قدرتها على زيادة قوتنا على الوجود والفعل. وهذا دليل على قدرة الكوناتوس على قلب هذه المعاناة إلى النقيض لجعلها منبعاً لزيادة الكمال لدينا.

ألا يشكل جعل المعاناة عملاً سردياً وكتابة أدبية، كما قام به Fritz Zorn<sup>12</sup> في كتابه المريخ Mars تأكيداً لمهارة الكوناتوس لوضع استراتيجيات لتحويل الضعف والهشاشة إلى

سلطة وقوة؟ وكذلك لإعادة صياغة عنوان كتاب Laurent Bove الذي سبق ذكره، وأيضا من أجل استعادة معالجة الإشكالية التي طرحنا في بداية قولنا هذا، هل يجب التشكيك في موقف أولئك الذين يدينون المتعة بنفس القدر الذي ندين فئة الذين يجعلون الوجود الإنساني استمتعا دائما؟

الاستمتاع والمعاناة هما مظهران من مظاهر الانفعالات الإنسانية، يمكن للأولى كما للثانية أن تكون مصدرا للعبودية Servitude، ولا يشكل الاستمتاع علاجا ضد المعاناة، فحياة بدون معاناة هي حياة بدون متعة، وبالتالي حياة لا إنسانية.

إذا كان سبينوزا في زمانه يدين مناهضي الاستمتاع، فإنه كذلك سيكون قاسيا في حكمه على الذين يجعلون الاستمتاع في الفترة الحالية حتمية في حكمه على الذين يجعلون الاستمتاع في الفترة الحالية حتمية جديدة وبشكل قطعي، لأن الاستمتاع والمعاناة لا يمكنهما أن تنتجا غير آثار إيجابية والسماح بالمرور من المعاناة إلى الفعل عوض المواجهة بينهما، والذي يستخدم كمحفز للعقل يثير فيه التفكير الذي يعد العلاج الوحيد للعبودية. وكذلك ينبغي أن نرى في مشروع العلاج من أي شكل من أشكال المعاناة تعبيرا عن لذة عظيمة fantasme لوجود لا ينكشف إلا في حالة الاستمتاع، نتاج خيال تغذيه رغبة غير مفهومة لذاتها، رغبة مستلبة وغريبة عن طبيعتها الذاتية.

ولعله من الضروري أن نرى في ذلك كراهية معينة للحياة، ألا تشكل الرغبة علاجا وشفاء لجميع أنواع المعاناة عزوفا عن الحياة وإعراضا عنها. كما لو كانت مرضا. لذلك أليس من الضروري وعلى شاكلة أفلاطون في محاوره فيدون (Le Phedon) أن نسأل أصدقاءنا أن يقدموا ديكا قربانا لأسيليبون (Asclépios) شكرا له على تجنبنا المعاناة بشكل نهائي<sup>13</sup>.

## خاتمة:

إذا كانت " الرغبة هي ماهية الإنسان"<sup>14</sup>، فهذا يعني أن ماهية الإنسان غير معرفة بشكل نهائي، فليست جهدا يمكن تحديده مسبقا، وأنه لن يكون من الضروري امتداده لتفعيل ذاته. قوة الرغبة هي قوة منتجة ومبدعة، ولا يعني ذلك خلق الوجود من لا شيء، وهذا ما لا يمكن التفكير فيه. ولكن بمعنى أن قوة الرغبة تنتج الجديد من خلال مزيج من عوامل وأسباب متعددة، خارجية وداخلية، والتي تأتي لتغذية الرغبة ومنحها قوة التعبير عن ذاتها من خلال ما تنتجه من أعمال. وهكذا، فإن المعاناة ذاتها قد تكون مصدرا للقوة كما هو الحال في الاستمتاع وذلك عندما لا تكبل العقل وتكبح جماحه. وتتفتح على إثبات الذات لرفع المعاناة وتحويلها إلى فعل يمون مصدرا للفرح. وكذلك، فإن قوة الإنسان لا يمكن أن تنمو بواسطة علاج المعاناة أو إدانة المتعة، بل إن قدرة الإنسان على مواجهتهما (المتعة والمعاناة) هو ما يخلق ويبنى حب الحياة. حياة يمكن أن نعيشها ما لا نهاية له من المرات، وفق مفهوم العود الأبدي النيتشوي<sup>15</sup>. وهو مفهوم غال على فيلسوف حافظ دائما على علاقة غامضة جدا مع سبينوزا قبل اختزال فلسفته إلى مجرد " قعقعة هيكل عظمي"<sup>16</sup>. وقد اكتشف من قبل واحدا من أعظم أسلافه<sup>17</sup>.

ألا ينبغي أن نرى أخيرا في هذه القوة تجسيدا للشخص القادر على نقل المعاناة إلى فعل، وهي العبارة التي يسميها نيتشه الصحة الكبرى "هذا النوع من الصحة الذي لا يمتلكه فقط، بل نكتسبه، ويجب علينا أيضا أن نكتسبه باستمرار، لأننا نضحى بها بدون انقطاع، لأنه يجب أن نضحى به ..."<sup>18</sup>

<sup>1</sup> - أستاذ الفلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.

<sup>2</sup> - يقول سبينوزا: "موضوع الفكرة المؤسسة للذهن الإنساني هو الجسم، وتعبير آخر حال من أحوال الامتداد موجود بالفعل، ولا شيء غير ذلك"، سبينوزا، الإيتيقا، ترجمة أحمد العلي، إفريقيا الشرق، الطبعة الأولى 2010، ص 97.

<sup>3</sup>- سبينوزا، الإيتيقا، مرجع مذكور، تعريفات العواطف، التعريف 1، ص 214.

<sup>4</sup>- " ما تحريم اللذات إلا خرافة ظلامية بئسة. إذ في أي شيء يكون الأكل والشرب أكثر نفعاً من التخلص من الكآبة؟ إلكم قاعدتي وما أومن به. ليس هناك قدرة إلهية، ولا لأي كائن آخر سوى لحسود يسعد بعجزتي وغمي ويعتبر الدموع والبكاء والخوف وظواهر أخرى من هذا القبيل التي هي علامات نفس عاجزة فضيلة. بل، على العكس من ذلك، كلما انفعلتنا بفرح شديد، انتقلنا إلى كمال أعظم، أي شاركا بالضرورة في الطبيعة الإلهية. لذلك، فاستعمال الأشياء والاستمتاع بها قدر المستطاع (لكن دون أن يصل ذلك بالفعل إلى التقرز، إذ ليس الأمر عند ذلك استمتاعاً)، جزء من إنسان حكيم. أقول: فن طبيعة إنسان حكيم تقوية نفسه وإطعامها بأكل وأشربة شبيهة متناولة باعتدال، وأيضاً بعطور، وبهاء نباتات مخضرة، ولباس، وبموسيقى، ورياضات، ومعرض مسرحية، وأشياء أخرى من هذا القبيل، يمكن لكل إنسان أن يستعملها من دون ضرر للغير. فالجسم الإنساني مركب من عدد كبير من الأجزاء ذات الطبيعة المختلفة، والتي تحتاج باستمرار إلى غذاء جديد ومتنوع، كي يكون الجسم بأجمعه كذلك قادراً على كل ما يمكنه أن يترتب على طبيعته، وبالتالي كي يكون الذهن هو نفسه قادراً على فهم أشياء كثيرة في آن واحد. لذلك فنظام الحياة هذا يناسب جيداً مبادئنا والممارسة العامة، وبالتالي فإن كانت هناك كيفية أخرى للحياة، فهذه هي الأفضل وهي المستحبة على كل حال، ولا حاجة لنا لمعالجة هذا الموضوع بمزيد من الإيضاح ومزيد من الإسهاب." المرجع نفسه، الجزء الرابع، القضية 45، التعليق الثاني، ص 281-282.

<sup>5</sup>- " ليس الفرح قبيحاً على نحو مباشر، بل هو حسن، أما الحزن، فهو قبيح على نحو مباشر" سبينوزا، الإيتيقا، مرجع مذكور، الجزء الرابع، القضية 41، ص 277.

<sup>6</sup>- " كل الناس يولدون جاهلين بعلل الأشياء" سبينوزا، الإيتيقا، مرجع مذكور، تذييل الجزء الأول، ص 72.

<sup>7</sup>- " الفرح هو انتقال الإنسان من كمال أقل إلى كمال أكبر" سبينوزا، الإيتيقا، مرجع مذكور، الجزء الثالث، تعريفات العواطف، التعريف الثاني، ص 215.

<sup>8</sup>- " عاطفة الفرح المتعلقة بالذهن وبالجسم في آن واحد، دغدغة أو سرور، وسأسمي عاطفة الحزن ألماً أو كآبة. لكن يجب الإشارة إلى أن الدغدغة والألم يتعلقان بالإنسان، عندما يكون أحد أجزائه أكثر انفعالا من الأجزاء الأخرى، أما السرور والكآبة فيتعلقان بالإنسان عندما تكون كل أجزائه منفعة بالقدر نفسه." سبينوزا، الإيتيقا، مرجع مذكور، الجزء الثالث، القضية 11، التعليق، ص 164.

<sup>9</sup>- Spinoza, Traité de la réforme de l'entendement, Traduction de Bernard Rousset, Vrin, 2002, p. 35.  
<sup>10</sup>- Pierre Macherey, introduction à l'Éthique de Spinoza, La troisième partie, La vie affective, PUF, Paris, 1995, p 104-105.

<sup>11</sup>- Laurent Bove, La stratégie du conatus, affirmation et résistance chez Spinoza, Vrin, Paris, 1996, p121.

Gallimard, Paris, 1979. Mars, <sup>12</sup>- Fritz Zorn,

, Platon, " Criton, nous devons un coq à Esculape. Payez cette dette, ne soyez pas négligents." <sup>13</sup>-

*Phédon*, 118a, trad. Monique Dixsaut, Garnier-Flammarion, 1991 p. 309.

<sup>14</sup>- Ce « dernier mot » ridicule et terrible signifie pour qui sait entendre : « Criton, la vie est unemaladie ! » Est-ce possible, un homme tel que lui, un homme qui avait vécu joyeux et aux yeux de , Nietzsche, *Le gai savoir*, § 340, trad. "tous, comme un soldat, cet homme était un pessimiste ! Alexandre Vialatte, Gallimard – Folio/essais, 1950, p. 275.

« Je reviendrai avec ce soleil, avec cette terre, avec cet aigle, avec ce serpent — non pas dans -<sup>15</sup>  
une vie nouvelle, dans une vie meilleure, ni dans une vie semblable : je reviendrai éternelle pour cette  
même et identique vie, avec toutes ses grandeurs et toutes ses misères, pour enseigner de nouveau le  
retour éternel de toute chose. », Nietzsche, *Ainsi parlait Zarathoustra*, troisième partie, « Le  
convalescent », trad. Geneviève Bianquis, Garnier-Flammarion, 1969, p. 275-276.

<sup>16</sup> - Car - qu'on me pardonne -, ce que Spinoza a laissé, *l'amor intellectualis dei*, n'est qu'un  
cliquetis de squelette ! », *Le gai savoir*, op. cit., § 372, p. 340.

« Je suis très étonné, ravi ! J'ai un précurseur et quel précurseur ! Je ne connaissais presque pas -<sup>17</sup>  
Spinoza. Que je me sois senti attiré en ce moment par lui relève d'un acte « instinctif ». Ce n'est  
pas seulement que sa tendance globale soit la même que la mienne : faire de la connaissance l'affect le  
plus puissant - en cinq points capitaux je me retrouve dans sa doctrine ; sur ces choses ce penseur, le  
plus anormal et le plus solitaire qui soit, m'est vraiment très proche : il nie l'existence de la liberté de  
la volonté ; des fins ; de l'ordre moral du monde ; du non-égoïsme ; du Mal. Si, bien sûr, nos  
divergences sont également immenses, du moins reposent-elles plus sur les conditions différentes de  
l'époque, de la culture, des savoirs. *In summa* : ma solitude qui, comme du haut des montagnes,  
souvent, souvent, me laisse sans  
souffle et fait jaillir mon sang, est au moins une dualité. - Magnifique ! », Nietzsche, *Lettre à  
Franz Overbeck*, Sils-Maria le 30 juillet 1881.  
Nietzsche, *Le Gai savoir*, op. cit., 382, p. 355.-<sup>18</sup>

-----